مذكرات عن أبحاث جارية حول المـــــرأة

المرأة فى شرق السودان: اشكالية بحثية

دراسات المرأة فى السودان تعانى من فقر واضح فى الجانبين التوثيقى والتحليلى، ماعدا بعض الدراسات القليلة ذات المستـــوى الجيد. وهذه الدراسات ،هى الأخرى، تتسم بصفة التركيز على مناطـــق بعينها. وبناء على ذلك نجد أنّ هناك حاجة ماسّة لدعم الدراســـات النسوية عامّة وفى المناطق الريفية واليدوية خاصة. وبنفس القـــدر من الأهمية يستدعى الأمر تحسين أدواتنا البحثية والمنهجية ،وخاصـــة فى شقها النظرى، فيما يتعلّق بهذا الأمر.

ضمن إطار مشروع أبحاث البحر الأحمر، وهو مشروع بحثى مشتـــرك بين جامعة الخرطوم وجامعة بيرقن بالنرويج، كانت اهتماماتى البحثية تركز على أهمية دراسة الدين فى صوره المتعدّدة وعلاقته بالعمليـــات الاجتماعية المختلفة وفى إطاره الأيدلوجى العام لفهم حركية المجتمع فى المنطقة. وقد ظهرت لى بعض المؤشرات القوية والدّاعية الى مزيد من البحث والاستقصاء فى سبيل استكمال مشروع بحثى ضخم أسعى الـــى إنجازه. ليس هنا مجال تفصيل ذلك البحث ولكنّه فى إجماله يسعى الـــى معرفة أنواع العلاقة بين صور الفكر والأنماط الثقافية والمؤسســـات التى تسندها وتدعمها وتشكلها فى علاقتها الجدلية مع أنماط المعيشة والحياة السائدة فى مجتمع البحث فى ظروف تاريخية محدّدة. وأود هنا أن أطرح بعض الملاحظات العابرة عن المرأة التى جاءت نتيجـــــة للاستقصاء فى تكوين وتنظيمات المجموعات الدينية عموما فى منطقة سنكات ،بعض هذه الملاحظات آمل أن أواصل فيها بحثى وتدقيقى. أمّـــا الأخريات فالأمل أن تستكمل من قبل باحثين أو باحثات آخريـــــــن. وأورد هنا بعضا من هذه الملاحظات بصورة عامّة :-

(١) يرجع الهدندوة - عبر قصص متضاربة ومختلفة - بأصولهم الـــى الزواج الذى تمّ بين باراكوين "محمد المبارك" - ذى الأصول العربية - والذى كان لقبه "الشجاع" وبين "هداة" (اللبوة بلغة البجا) وهـــى ذات أصل بجاوى (تختلط بالدماء العربية فى بعض القصص).

(٢) فى أساطير البجا هناك اشارات الى أنّ "بلقيس ملكة سبأ" فـــى

بعض اتصالاتها مع سيدنا سليمان قد أهدته مجموعة من الجوارى اللائى أبحرت بهنّ السفن بالقرب من جزيرة سواكن التى اضطرّوا للمبيت بها لظروف تقلّبات الجو وهيجان البحر. وجزيرة سواكن يعتقد قديما أنّها من الأماكن التى كان ينفى اليها الجن،فوقع الجن على الجوارى وبلغن سيدنا سليمان وهنّ حبليات ،وتقول الأسطورة أنّ سيدنا سليمان غضب وردّهنّ الى سواكن.

(٣) أشهر قصص البجا المعروفة هى قصّة تاجوج - وتدور حول حبّها وزواجها لابن عمّها والذى انتهى بمأساة.

(٤) من خلال بحثى الميدانى اتضح لى بأنّ هناك عددا كبيرا من خلاوى النساء فى المنطقة عموما،حيث أنّ نجاح ذلك ظهر جليا فى تجربة خلاوى هميشكوريب التى أنشأها المرحوم "على بيتاى"،وفى تجربة مماثلة لذلك فى مدينة جبيت كان نجاح الخلاوى وسط النساء أكبر بكثير من الرجال. فقد تمّ إنشاء سبعة مراكز نسوية ،ومازال إنشاء المركز الأول للرجال متعثرا. كما أنّ الخلاوى النسوية فى منطقة سنكات تفوق العشرات ،وهى خلاوى يدرّس فيها القرآن والفقه وسائر المسائل الدينية الأخرى بواسطة نساء شيخات . وفى منطقة طوكر تتكرّر ظاهرة الخلاوى النسوية بصورة جلية.

(٥) اشتهرت سنكات ،ومازالت ،بأنّها بلد "الشريفة مريم" حفيدة السيد محمد عثمان الكبير مؤسّس الطريقة الختمية بالسودان،وأمّها من البنى عامر. وشهرة السيدة مريم وأثرها فى شرق السودان عموما لا مثيل له على الرغم من وجود كثير من رجال الطريقة المهمّين. فضريحها وتكيتها لا تزال من الأمكنة التى تزار،ولها وجود مؤثر. كما أنّ "حوليتها" السنوية مناسبة اجتماعية ضخمة تجمع الهدندوة من جميع بقاع الشرق.

كل ما ذكرته أعلاه يثير بعض الاشكالات البحثية نذكر طرفا منها فيما يلى:-

(١) المؤشرات أعلاه تنبىء بأهمية ومركزية المرأة فى فهم حركية مجتمع الهدندوة. غير أنّ هناك صورة أخرى - ظاهرية- كما تبينها الأيديولوجيا السائدة (كأيديولوجيا الشرف ، والعيب مثلا) تصور دور المرأة بأنّه هامشى،وأنّها خاملة

الذكر وغير مهمّة فى الحياة العامّة ،وتخضع خضوعا كاملا لسيطرة الرجل وأنّها فقط تدور كتابع فى فلك نفوذه وهيمنته وليست لها أية حركة ذاتية. ما العلاقة بين الأيديولوجيا والممارس ؟

(٢) وهناك إشكال آخر لم يجد البحث الكافى بطريقة جدّية بالرغم من أهميته وهو مسألة الخط الأمومى عند البجا. فممّا ارتكز عليه المؤرّخون الحديثون، انطلاقا من كتابات المؤرّخين العرب القدماء ،لتوضيح العمليات الاجتماعية التى مكنت العرب من السيطرة والهيمنة على منطقة ومجموعات البجا مقولة أنّ النظام الاجتماعى عند البجا كان يقوم على مبدأ توريث ابن الأخت ـ أى أنّه كان نظاما أموميا Matrilineal ،وقد ناقش حسن محمد صالح هذا الرأى ومال الى ترجيح الـ Matrilocality أى تأثير المرأة من خلال ارتباطها بالمكان (فعند الزواج مثلا لابدّ للزوج أن يقيم مع أهل زوجته لفترة تمتد أحيانا، الى ما بعد إنجاب المولود الأول). على كلّ لم يجد الأمر العناية والاستقصاء الكافيين لاستجلاء عناصره ومكوّناته. هل هو أيديولوجيا ،كما يناقش الحاج أحمد فى رسالته للدكتوراه ؟ هل هو ما يحفظ للبجا خصائصهم المميزة لقرون عديدة ؟ وما ارتباط ذلك بالنسب القرابى والعلاقات القبلية بين البجا وغيرهم وارتباطهم بالأرض وبقية مؤسساتهم الاجتماعية من جهة أخرى؟ وهكذا.

(٣) من أين تستمد مؤسسة كالخلوة النسوية شرعيتها وقوّتها للاستمرارية ؟ وهل هى نابعة من الأصل الاجتماعى لدور تاريخى للمرأة فى المنطقة ، أم هى مسألة يمكن ارجاعها الى شىء آخر كانتشار المذهب الشافعى فى المنطقة ؟ ومن المعروف أنّ خلاوى النساء تنتشر فى بعض مناطق اليمن،وبعض بلدان شرق افريقيا ولا نجد لها مثيلا،فى سعة الانتشار وقوّة النفوذ،فى مناطق السودان الأخرى التى تكثر فيها خلاوى الرجال،ممّا يجعل المقارنة بين المجموعات ذات عائد بحثى يمكن أن يعمّق من درجتى الفهم والتحليل فى مسائل المجتمع عموما ومسألة

المرأة على وجه الخصوص ،على المستوى الاقليمى والمجتمعات العربية الاسلامية. فنستطيع أن نعرف مثلا الدور الحقيقى لسلطة ونفوذ المرأة ،إن كان لها ذلك ،عبر استكناه قوّة التماسك والتضامن بين النساء الدارسات الذى توفره الخلوة ، والى أىّ قطاعات فى المجتمع يمتد ذلك الأثر، النساء أنفسهنّ فقط ،أم الأطفال، أم الرجال ؟ أم سائر موّسسات المجتمع الخ...

هذه مجرّد خواطر عنّت لى أثناء قيامى ببحثى المذكور فى منطقة البحر الاحمر،ورأيت عرضها بهذه الصورة العمومية ،على علّتها عسى أن تفتح آفاقا بحثية تسهم نحو مزيد من الفهم لقضايا المرأة ووضعها فى المجتمع.

ادريس سالم الحسن
محاضر،قسم الاجتماع
كلّية الاقتصاد،جامعة الخرطوم

الجفاف وأثره فى تغيير الأدوار التى تلعبها المرأة عند قبيلة الهدندوة

إنّ الاطار التحليلى الذى نحاول تبنّيه فى مواجهة الفكرة التمييزية السائدة عن النساء كجنس آخر (ومن ثم تنادى بضرورة وجود المرأة فى المنزل) هو ذلك الاطار الذى يستطيع أن يدمج بداخله التفسير التاريخى لوضع المرأة والتغييرات الجارية التى يتعرّض لها تحت ظل التمييز الجنسى لنوع العمل.

بمتابعة الجذور التاريخية لوضع المرأة لا نعنى بالضرورة تبنّى الاتجاه الماركسى التقليدى الذى يحصر مسألة المرأة فى التحليل الطبقى فقط . إنّ التحليل الطبقى يحصر الدلالات الواسعة لعمل المرأة فى المجتمع فى محض الفائدة المادية التى تمنحها المرأة العاملة للرأسمالية. وبهذا تتجاهل أسباب التمييز الجنسى للعمل، كيفية نشأته ،والأسباب التى كفلت استمراره منذ نشأته وحتى الآن.

نقصد بالتقسيم الجنسي للعمل كل أنواع التمييز الثقافي والاجتماعي الواقع على المرأة بسبب الجنس (الذكورة والأنوثة) وهذا يشمل عمل النساء كأمهات وربّات منازل الخ.....

إنّ فهمنا لمسألة المرأة يجب ألاّ ينظر اليه من خلال الاضطهاد العام الذى تتعرّض له البروليتاريا، فالمرأة تتعرّض لاضطهاد مزدوج كعاملة وكامرأة (جنس آخر). ففى داخل الأسرة تتعرّض المرأة لاضطهاد السلطة الأبوية (البطريركية) كموضوع للجنس ومنجبة للأطفال. ففى داخل هذه التركيبة (البطريركية) تنتج العناصر البيولوجية (الحيوية) والنفسية التى تدعم وتبقى على فصل المرأة فى العمل المنزلى. هذا النوع من العناصر البيولوجية يمكن فهمه بصورة أوضح من خلال التقسيم الجنسى للعمل، الذى بدوره يمكننا من توضيح العلاقات الانتاجية وتقسيمها. كما يمكن أن يفسّر لماذا يقوم أفراد جنس واحد بأعمال تتسم بصفة واحدة.

فى داخل هذا الاطار النظرى تحاول دراستى عن مشكلة الجفاف وأثرها على النساء والعلاقات الجنسية (بين الجنسين) أن تركز على وضع المرأة عند قبيلة الهدندوة قبل وبعد المجاعة. فالمرأة الهدندوية تعتبر أقرب الى الطبيعة فى ثقافة الهدندوة من حيث التصاقها بأدوار الحمل، الانجاب، وصنع الطعام. إنّ أيدلوجيا الشرف السائدة عند القبيلة قد دعمت هذه الفكرة فى قوانينها وطقوسها والتى تمارس منذ لحظة الميلاد الأولى تبعا لنوع المولود. فنجد القبيلة تحتفل بميلاد الذكر ويتوّج هذا الاحتفال بالتخلّص من (التبيعة) بكثير من الطقوس التى تدعم ارتباط الذكر بالعالم الخارجى وانفصاله منذ اللحظة الأولى من مخدع النساء. فتبيعة الطفل الذكر تحمل وتقذف بأعلى احدى الأشجار النّائية بقدر كاف من منطقة الخيم (سكن النسوة). وفى مقابل ذلك تدفن (تبيعة) الطفلة فى حفرة عميقة داخل أو بالقرب من الخيمة دون طقوس احتفالية تذكر. وبدفن تبيعة الطفلة هكذا يعتقد الهدندوة أنّ الفتاة ستكون شريفة فيما يتعلّق بجسدها، كما أنّها ستكون ملتزمة بكل تعاليم القبيلة، التى ترى عزّتها داخل المنزل وفى إنجاب وتربية الأبناء. لذا فإنّ المرأة الولود للذكور تمجّد وتعتبر أكثر عزّة من تلك التى تنجب البنات

مثلا أو لا تنجب أصلا. فكثيرا ما تتعرّض الأخريتان لعدم الاستقـــــرار العائلى والخوف من الهجر بواسطة الزوج أو من زواجه بأخرى. هـــذه الفكرة البيولوجية فى منشئها قد جعلت من عذرية الفتاة عند قبيلة الهدندوة ميزة أساسية فى تحديد شرفها ومن ثم شرف القبيلة بأكملها لذا فإنّ المرأة تبعا لأيدلوجيا الشرف العام للقبيلة ،توضع فـــــى مرتبة أقل يمكن تسميتها بالمرتبة الثانوية للشرف . فاكتســـــاب المرأة لذلك الشرف مشروط بمقدرتها ومدى التزامها بالأدوار التـــى حدّدتها لها الطبيعة والأيدلوجيا القبلية المستمدّة منها وهـــــى الحفاظ على عذريتها، احترامها للرجل،والتزامها جانب الأعمـــــال المنزلية . هذه الأيدلوجيا للشرف ترى فى الرجال الدرع الواقى لشرف القبيلة العام، الممثل فى حماية الأرض والعرض والدفاع عنهمـــــا بالنفيس .

إنّ القيم التى تحكم النظام الاجتماعى لقبيلة الهدندوة وتجعل من النساء جنسا آخر،يجب عدم ولوجه عالم الرجال قد تعرّضت لتحـــوّل كبير إثر ضربة الجفاف التى تعرّضت لها المنطقة فى فترة سنـــــوات ١٩٨٤ و١٩٨٥. هذا بالطبع لا يعنى أنّ هذا التأثير اقتصر على المجاعة الأخيرة ولم ينجم عن مجاعات خلت فى المنطقة . ولكنّنا وجدنا مـــــن خلال الدراسة أنّ هذه المجاعة كانت أقوى من سابقاتها بدليـــــل أنّ كثيرا من الأسر التى نزحت عن ديارها لم تستطع الرجوع الى مناطقهـــا كما كانت تفعل فى السابق.

فالنزوح للمدينة ،وهجرة الرجال للبحث عن وسائل أخـــــــرى للاسترزاق قد خلقا حقائق اجتماعية جديدة . فقد تركت تلك العوامـــــل المستجدة المرأة ، الأكثر ارتباطا بالطبيعة ،وحدها فى معظم الأحيـــان لتتواءم مع هذا الوضع الجديد. كما اضطرت للبحث عن العمل كخادمـــات فى المنازل وبايعات للزعف ليغالبن البقاء وأسرهنّ أحياء.

لذا فقد أثرت هذه الهجرة بصورة أو بأخرى على النســـــــاء بإعطائهنّ مجالا لاتخاذ قرارات كانت من شأن الرجل قبلا. ففى غيبـــة الرجال تهيأ للمرأة القيام باتخاذ قرارات بشأن الأسرة وكسب العيش .

وقد أدّى هذا بلا شك الى اضعاف السلطة الأبوية التى كانت للرجـال على النساء. وأدّى هذا الى تغيير فى الأدوار التى كانت النســـاء

يلعبنها فى السابق. وهى أدوار قلنا إنّها كانت تجعلهنّ أقرب الى الطبيعة. أمّا أدوار النساء الجديدة فقد جعلتهنّ يقتربن من أدوار الرجال التى هى أدخل فى الثقافة عند الهدندوة. هذا التغيير فى الادوار بالطبع يتعارض مع قيم الشرف الهدندوية التى ترفض خروج المرأة للعمل لأنّ الكسب حسب الأيدلوجيا السائدة من وظائف الرجل. وبسبب هذا التغيير تعرّضت كثير من النساء للهجران أو الطلاق وذلك لعدم مقدرة أزواجهنّ على كفالتهنّ. لذا فبجانب الخروج للعمل اتخذت بعض النساء قرارات بشأن التصرّف فى جسدهنّ بعيدا عنسيطرة وقوانين القبيلة.

يجب ألا يفهمن هذا أنّ المرأة الهدندوية قد نالت حرية أكثر بوجودها فى المدينة. ففى المدينة صارت تلك المرأة تقوم بأعباء مزدوجة داخل وخارج المنزل،كما أنّها صارت أكثر تهميشا لعدم وجود الرجل معها من ناحية ،ولأنّها انضمّت لقطاعات فقيرة فى المدينة حيث لا يوفر لها السوق غير الأعمال الهامشية. وفى هذا الاطار لا نحاول التحدّث عن المرأة الهدندوية كمجموعة واحدة حيث أن الهدندوة ينقسمون الى أفرع عديدة كالبشاريا ب ، الجميلاب ، البوقلونى الخ.... وكل هذه الفروع تختلف فى مدى التزامها بالقيم والقوانين التى تمليها الأيدلوجيا الأبوية للقرابة تبعا لعوامل وأسباب مختلفة ستفصلها الدراسة.

إنّ نساء البوقلونى مثلا واللّائى نزحن مع أزواجهنّ من منطقة جبيت الأشراف (بالقرب من مدينة سنكات) يختلفن فى مدى تأثرهنّ بالمجاعة وتحوّلهنّ الى المدينة عن نساء الجميلاب ، اللّائى يقطنّ الجبال النائية. فنجد أنّ نساء البوقلونى لم يخرجن للبحث عن العمل خارج منازلهنّ،كما أنّهنّ مازلن يمارسن نفس الأعمال المرتبطة بالجنس (النوع) أى الأعمال المنزلية. فى حين أن نساء الجميلاب قد خرجن للعمل وأصبحن فى كثير من الأحيان يشاركن فى ميزانية المنزل وكسب العيش.

ويرجع هذا الى أنّ رجال قبيلة البوقلونى لم يهاجروا الى غير سنكات كما أنّهم يحتكرون معظم الأعمال القليلة التى يوفرها سوق المدينة مثل العتالة ،سقاية الماء الخ... وقد نشأ احتكارهم

هذا لصلة القرابة الأمومية (عن طريق الأم) التى تربطهم بملاك المنطقة الأصليين من قبيلة (الأميراب). وبهذا أدّى وجودهم فى المدينة الى زيادة تأثيرهم (أو الحفاظ على نفس التأثير السابق) على زوجاتهم الى حد حبسهنّ فى الخيم ورفض خروجهنّ واحتكاكهنّ بنساء المدينة خوفا ممّا قد يجلبنه من عادات تتعارض وقيم القبيلة.

تحاول الدراسة الاستنارة بمفهوم النساء أنفسهنّ للعلاقة بينهنّ وبين رجال القبيلة ومدى التأثير الذكورى الواقع عليهنّ. فقد اتضح من الدراسة أنّ النساء عند قبيلة الهدندوة، ونسبة للعزل الواقع عليهنّ من المجتمع، قد كوّنّ عالما خاصّا لأنفسهنّ. لهذا فهنّ يتضامنّ بدون علم الرجال، فى كثير من الأحيان لخرق القوانين التى قد تحجر حريتهنّ أو توصمهنّ بالعار.

سيحاول البحث الاقتراب من مشاكل المرأة الحقيقية فى سياقها الاجتماعى والاقتصادى للقطر ككل. فمن الضرورى أن نتفهم أنّ وضع المرأة الدونى فى السودان لم ينشأ من فراغ اجتماعى بل على العكس فإنّ ذلك الوضع هو نتاج للترتيبات التركيبية للمجتمع، والايدلوجيات التمييزية الجنسية التى تسند تلك الدونية التى تعانى منها النساء. ولهذا توجهت الدراسة الى دراسة النسق الاجتماعى للقبيلة، والمفاهيم التى تطرحها الأيدلوجيا الأبوية للقرابة الناتجة عن نمط الانتاج الرعوى، والعلاقات الاجتماعية بين الجنسين فى ظل الأيدلوجيا الأبوية.

آمال حسّان فضل الله
ماجستير شعبة الأنثربولجيا
كلّية الاقتصاد والعلوم
السياسية - جامعة الخرطوم